أهمية وحدة الصف والالتزام بالشرع الإسلامي

إخوة الإيمان: إنه من مقاصد الإسلام العالية، وركائزه العظام السامية، نشرُ المحبة والألفة بين العباد، ونبذُ التخاصم والتدابر والأحقاد، وبناءُ القلوب لا الصدام، قال تعالى: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا [آل عمران]. قَالَ الإِمَامُ القُرطُبِيُّ رحمه الله في تفسير هذه الآية: أي تمسّكوا بدين الله الذي أمركم به، وبعهده الذي عهده إليكم في كتابه من الألفة، والاجتماع على كلمة الحق، والتسليم لأمر الله، فحبل الله هو دينه، وهو السبب الذي يُوصَل به إلى المطلوب، وزوال الخوف، والنجاة من الفتن. عباد الله، هذه الآية وغيرها تدلنا على أن الألفة والمحبة بين المؤمنين نعمة كبرى، ومِنّة عظمى، لا تقوم الجماعة إلا بها، ولا يستقيم المجتمع بدونها، فنحن هنا في أوروبا، بدون اجتماعنا على الحب في الله، نبقى كأحجارٍ متناثرة، لا إسمنتَ يربط بينها، ولا بناءَ يقوم بها. وفي هذه الآية بيانٌ لأهمية الالتزام بشرع الله في كل الأحوال، خصوصًا في أوقات الشدّة، فالشرع هو الجامع، وهو الحامي، وهو الذي يوحّد ولا يفرّق، ويؤلّف ولا يصادم، فلا يكون زوال الكرب بالخروج عن الشرع، ولا بمخالفة أمر الله، ولا بمزاولة المنكرات. وإذا كان هذا هو توجيه القرآن، فإن السنة النبوية جاءت مؤكدةً لهذا المعنى، ففي الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضًا». وفي الصحيحين أيضًا قال صلى الله عليه وسلم: «مثلُ المؤمنين في تَوادِّهم، وتراحمِهم، وتعاطُفِهم، مثلُ الجسدِ الواحد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجسدِ بالسهرِ والحمّى». وفي هذا المعنى قال النبي صلى الله عليه وسلم: «المسلمون فيما بينهم كأسنان المشط»، لا تفاضل بينهم بلون، ولا بلغة، ولا بأصل، ولا بجنسية. بل قال صلى الله عليه وسلم في خطبته الجامعة: «يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر، إلا بالتقوى».

وقال الله تعالى مؤكّدًا هذا المعنى: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ [الحجرات]. فالمعيار في الإسلام واحد، والميزان واحد، وهو التقوى، ولذلك لا مكان بيننا للعصبيات، ولا للتحزّبات، ولا للتفرقة، خاصة ونحن نعيش كمسلمين في أوروبا، نحتاج إلى التآخي، والانسجام، والتماسك، أكثر من أي وقت مضى. ولم يقف الشرع عند الدعوة إلى المحبة فحسب، بل جعلها عبادةً عظيمة، ففي الحديث القدسي يقول الله عز وجل: «وجبت محبتي للمتحابين فيَّ، والمتجالسين فيَّ، والمتزاورين فيَّ، والمتباذلين فيَّ». وجاء في الحديث المتفق عليه عن السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، وذكر منهم: «ورجلان تحابّا في الله، اجتمعا عليه وتفرّقا عليه». وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ثلاثٌ من كنّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرء لا يحبّه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار». عباد الله، كان هذا هو مبدأ النبي صلى الله عليه وسلم منذ بداية دعوته في المدينة، جمع القلوب قبل الصفوف، وألّف النفوس قبل التنظيمات، وكان من أوائل ما قاله لأصحابه: «تآخوا: أخوين أخوين». ونحن اليوم، هنا في أوروبا، وبالخصوص في مسجدنا هذا، أحوج ما نكون إلى هذه الرسائل الأساسية: محبةٌ صادقة، وأخوّةٌ عملية، وتعاونٌ على البر والتقوى، وبناءٌ للقلوب لا الصدام بينها. ومن التطبيق العملي للمحبة في الله، ما رواه أبو داود وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ رضي الله عنه: «يا معاذ، والله إني لأحبك، فلا تدعنّ دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك». فربط النبي صلى الله عليه وسلم المحبة بالنصيحة، والدعاء، والحرص على الخير. وهكذا ينبغي أن نعيش هنا في أوروبا، وفي مساجدنا، وداخل أسرنا المسلمة: محبةٌ في الله، ونصيحةٌ في الله، وتعاونٌ على البر والتقوى، وتماسكٌ وتآخٍ وانسجام.

ونختم حديثنا بموقفٍ عظيم من مواقف الرحمة النبوية، يبيّن كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يبني القلوب ولا يصادمها، ويجبر الخواطر ولا يكسرها، وهو موقفه مع الصحابي الجليل زاهر بن حرام رضي الله عنه. كان زاهر رجلًا من أهل البادية، وكان يهدي للنبي صلى الله عليه وسلم الهدايا من البادية، فيجهّزه النبي من المدينة، وكان يقول: «إن زاهرًا باديتنا ونحن حاضروه». وذات يوم، كان زاهر يبيع متاعه في السوق، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم من خلفه فاحتضنه، فقال زاهر: من هذا؟ أرسلني! فلما عرف أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ألصق ظهره بصدر النبي فرحًا. فقال النبي صلى الله عليه وسلم مازحًا: «مَن يشتري العبد؟» فقال زاهر: إذًا والله تجدني كاسدًا يا رسول الله. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم جابرًا لقلبه، رافعًا لقدره: «لكن عند الله لستَ بكاسد»، وفي رواية: «أنت غالٍ». ففرح زاهر رضي الله عنه، وكان هذا الموقف درسًا عظيمًا في جبر الخواطر، وبيان أن قيمة الإنسان عند الله لا تُقاس بمظهره ولا بماله، وإنما بإيمانه وتقواه. ولنكن على ذكرٍ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا». فنحن اليوم في أمسّ الحاجة إلى وحدة الصف، لا لتكفير بعضنا بعضًا، بل لنكون أمةً قويةً متماسكة، نُحكّم شرع الله، ولا نُحكّم أهواءنا، ونبتعد عن إساءة الظن بربنا وبإخواننا.

وقد وعد الله تعالى نبيّه والأمة بالنصر، فقال سبحانه: إن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُركُم. ونصرة الله إنما تكون باتباع شرعه، والالتزام بسنة نبيه صلى الله عليه وسلم. نسأل الله تعالى أن يؤلّف بين قلوبنا، وأن يجعلنا من المتحابين فيه، وأن يجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يوحّد صفّنا، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير، وبعباده لطيف خبير.

خطبة الجمعة ليوم 2 يناير 2026 م